الفصل السادس

الربيع العربي[1]

«تلتزم الولايات المتحدة بمساندة شعبي مصر وتونس فيما هم يعملون علي إقامة نظم ديموقراطية تأتي بنتائج ملموسة لكل المواطنين، وأيضا بدعم طموحات الشعوب في أنحاء المنطقة. وفي هذا، تلتقي قيمنا مع مصالحنا. لقد أوضح التاريخ أن الديموقراطيات تميل لأن تكون أكثر استقرارا، وأكثر سلاما، وأكثر ازدهارا في نهاية المطاف. لكن الحيلة تكمن في الطريق الذي نسلكه لنصل إلي هدفنا».

– هيلاري كلينتون – من خطاب لها في المنتدي العالمي الأمريكي الإسلامي، ١٢ أبريل ٢٠٠١

---

(١) هذا المصطلح من ابتكار الأمريكيين والغربيين، إذ إن المصريين لم يطلقوه علي ثورتهم، هذا علي الرغم من أن ثمة من يستخدمونه وبخاصة في وسائل الإعلام. (الترجمة)

حتي فيما كانت الوزيرة كلينتون تتمعن «في الطريق الذي نسلكه لنصل إلي هدفنا» كانت موجة الحماس الأولي لما حدث في ميدان التحرير قد بدأت تنحسر في الولايات المتحدة، هدأ الصخب الذي أثير حول من كان له فضل الإطاحة بمبارك، فيما فضحت الاضطرابات بالبحرين واليمن تاريخ الولايات المتحدة المشبوه في تعاطيها مع الحكام المستبدين الذين وجدوا أنفسهم محاصرين وسط جماهير المتظاهرين المحتجين الذين شجعهم نموذج الشعب المصري. وعلي الرغم من أن الولايات المتحدة أرسلت قواتها إلي ليبيا للمشاركة في القضاء علي نظام معمر القذافي لكنها لم تكد تفعل أي شيء لمساندة شعب البحرين في مواجهته للملك حمد بن عيسي آل خليفة. حاولت كلينتون توضيح سبب ذلك بقولها «إننا ندرك أن اتباع نهج واحد ليناسب جميع المقاسات هو أمر غير منطقي في منطقة علي هذه الدرجة من التنوع، وفي هذا الزمن السائل».

ما لم تقله كلينتون علنا، هو أن جزءاً من هذه السيولة ينجم عن الخوف من أن الاضطرابات في البحرين ستزيد من مشاكل الولايات المتحدة وذلك للتوتر الذي تشعر به المملكة العربية السعودية لخشيتها من تزايد النفوذ الإيراني في الخليج، وأيضا خوفها من احتمال أن تطلب إليها البحرين، تحت الضغط الشعبي، مغادرة الأسطول الخامس الأمريكي والذي لا غني عنه لطمأنة حلفائها في المنطقة، الميناء الذي يرسو في البحرين. وعلي الرغم من ذلك، فقد أصرت كلينتون علي أن تؤكد علي أنه، وعلي المدي البعيد، فلابد أن تتطابق المصالح مع المبادئ: «كما قلتُ من قبل، فإن الولايات المتحدة قد ظلت علي علاقة صداقة مع البحرين منذ عقود، ونتوقع أن تستمر تلك الصداقة لوقت طويل في المستقبل. لقد أوضحنا أن الحلول الأمنية وحدها لا يمكنها حل التحديات التي تواجه البحرين، وأن العنف ليس هو الإجابة ولا يمكنه أن يكون

كذلك، بل إن الحل يكمن في العملية السياسية. لقد عبّرنا عن مخاوفنا من الإجراءات التي تتخذ حاليا للمسئولين البحرانيين مباشرة، وسنستمر في ذلك»[1].

قالت كلينتون إن جليد الشتاء العربي الطويل قد بدأ في الذوبان. أما المحافظون الموالون لبوش ولسياساته التي اتبعها بزعم نشر الديموقراطية، فقد شعروا بالرضا وهم يتمعنون في المشهد السياسي الآخذ في التغيير بالشرق الأوسط، فيما مضي المفكرون الليبراليون بمراكز أبحاثهم يتكهنون حول الدور الذي علي الولايات المتحدة القيام به لإرشاد القوي الثورية بالمنطقة إلي الطريق الصواب. حذّر السناتور جون كيري، رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ من الإفراط في الحماس والاعتقاد بحدوث الانتصار، وتساءل عن ردود الأفعال من مختلف الجهات. قال إن القوات المسلحة المصرية تتولي مقاليد السلطة هناك، ولا أحد يعرف ما إن كانت تستطيع التعاطي مع الفترة الانتقالية التي من شأنها أن تبدأ المسيرة إلي الأمام وإن السؤال هو حول كيفية استجابتهم، كما ينبغي أن نعمل معهم لإرشادهم وتوجيههم. وهذا هو التحدي الذي يواجهنا في الشرق الأوسط».

وجد الرئيس أوباما من خلال مشهد حدث في طهران حينما هاجمت الشرطة تظاهرات ضخمة خرجت لتأييد الثوار المصريين، وجد ضالته المنشودة لعقد مقارنة بين النظام الإيراني وبين ما يأمله من القاهرة في قيادتها لدول الشرق الأوسط. أعلن

---

(١) ما لا يذكره المؤلف هو أن التدخل في ليبيا مثلاً لم يكن لحماية «الثوار» بل كجزء من عملية لقوات الناتو رأي فيها السياسيون الغربيون فرصة للسيطرة علي موارد البلاد النفطية، مع تدمير بني البلد التحتية من أجل تقسيمها ثم إعادة إعمارها، تماما كما حدث في العراق. انظر كتاب «الثورات العربية والثورة المضادة أمريكية الصنع» للكاتب جيمس بتراس والذي أصدرت سطور طبعته باللغة العربية.

أما موقف أمريكا مما يجري في البحرين فيحكمه مصالحها كما يذكر المؤلف، وأيضا العمل علي درء انتقال «الربيع العربي» إلي دول الخليج المجاورة. فيما تتدخل الولايات المتحدة في اليمن من أجل تصفية حساباتها مع القاعدة باليمن، وأيضا من أجل دعم نظام حكم يتسق مع مطالب السعودية ويُبدّد مخاوفها من قيام نظام حكم وطني يعمل علي توحيد اليمن ويضر بالمصالح الأمريكية السعودية هناك. (الترجمة)

في مؤتمر صحفي له «إننا بعثنا برسالة قوية إلي حلفائنا في المنطقة نطلب منهم فيها أن ينظروا إلي النموذج المصري بالتقابل مع النموذج الإيراني». ثم مضي يقول إن التقدم الذي حدث في مجال الاتصالات من خلال الهواتف الذكية وتويتر وما شابه يعني أن علي الحكام العمل بما يتوافق مع إرادة شعوبهم». وأضاف «لقد بدا أن الحكومات في المنطقة تفهم ذلك وآمل منها أن تعمل بأسلوب يستجيب لهذا الفهم للتغيير، مع الحرص دائما علي اتباع أساليب لا تؤدي إلي العنف».

ثم جاء رد أوباما علي المخاوف مما قد يحدث في مصر حيث قد تستغل الجماعات المتطرفة مثل الإخوان المسلمين الفرصة وتمسك بالسلطة أثناء عملية الانتقال والتغيير[1] فقال «ستحتاج مصر إلي المساعدة كي تُقيم مؤسسات ديموقراطية، وإلي تقوية اقتصادها الذي تأثر سلباً نتيجة ما حدث. لكن المؤشرات التي نراها حتي الآن طيبة وسليمة وإيجابية رغم أنه من الواضح أن هناك الكثير مما يجب عمله في مصر».

كانت الإدارة، أثناء الفترة الحرجة التي سبقت إجبار مبارك علي التخلي عن موقعه، قد عملت عن كثب مع القيادات العسكرية المصرية، وفي هذا الصدد، كان جون كيري قد صرّح بأن الكثير، في مصر وخارجها، يتوقف علي النموذج الذي يقدمه الجيش المصري، وإنه إن لم يتعظ الزعماء غير المنتَخَبين في المنطقة بما حدث لمبارك، فإنهم سيطُاح بهم. كان روبرت جيتس وزير الدفاع الأمريكي والأميرال مايك مولي، يهاتفان نظراءهما بالقاهرة بشكل شبه يومي في الأيام الأولي للثورة وكان لما يقولانه أثره الذي كان يفوق كثيرا، الأوامر التي كان مبارك يصدرها إليهم بتفريق المتظاهرين. أشاد روبرت جيتس بالضباط المصريين وذلك لما مارسه الجيش المصري من ضبط النفس وقال «بصريح العبارة فقد فعلوا جميع ما بيّنا لهم أننا نود منهم أن يفعلوه..

(١) كما سبق وأشرنا، فعلي الرغم من عدم مشاركة التيارات الإسلامية، ومن بينها جماعة الإخوان المسلمين، في الثورة منذ بدايتها، إلا أنها، وعندما ظهرت بوادر نجاحها، حاولت نسب الثورة، لنفسها ووسمها بسمتها والهيمنة علي جميع مراكز السلطة وهيئاتها ومرافقها. راقبت الولايات المتحدة ذلك، وأرسلت موفديها إلي قيادات الجماعة، وتمت دعوتهم لزيارة أمريكا والتحدث مع صناع القرار هناك، وشهدت مصر تغيرا في التوجهات الأمريكية نحو الجماعة التي وصلت إلي الحكم وأمسكت بالسلطة في مصر. (الترجمة)

لقد أسهموا في مسيرة الديموقراطية وفيما نشهده الآن يحدث في مصر». أضاف چف مورل، المتحدث باسم البنتاجون وهو يعلق علي تلك الاتصالات الهاتفية التي كانت تجري بين القادة العسكريين الأمريكيين ونظرائهم المصريين، قوله «هذا مثال واحد فقط يُبين مدي تداخلنا مع المصريين».

حينما تولي المجلس العسكري السلطة، انعقدت آمال الجميع في واشنطون علي أن تستمر الأوضاع بين الولايات المتحدة والقاهرة كما هي. وعد المجلس، الذي يترأسه المشير حسين طنطاوي الذي ظل وزيرا للدفاع منذ وقت طويل، وعمل بإخلاص وولاء مع الرئاسة المصرية، والذي يتميز بالكياسة، ويحاول البعد عن الأضواء، وعد في بيانه الأول بإلغاء العمل بقانون الطوارئ سيئ السمعة الذي ظل قائما منذ أكثر من ثلاثين عاما، واعتُقِل بمقتضاه المعارضون السياسيون وظلوا دونما محاكمة، إلغائه بمجرد أن تسنح الظروف، وتعهد بإصدار تعديل دستوري من أجل إجراء انتخابات رئاسية حرة ونزيهة، ووضع جدول زمني محدد لكل هذا. في حديث له بالسي إن إن، تنبأ چون نجرو بونتى السياسي المخضرم الذي عمل مع الجمهوريين والديموقراطيين، وكان أول مدير للاستخبارات الوطنية الأمريكية أثناء رئاسة بوش الابن، تنبأ بما ستفعله حكومة الولايات المتحدة إذا نكث المجلس العسكري بوعوده وقال إنها ستقوم بمعاقبته لإجباره علي الوفاء بها.

لكن سرعان ما اصطدمت تنبوءات نجرو بونتي بتصميم المشير طنطاوي علي عدم التنازل عن أي من مزايا الجيش الاقتصادية والمالية، في البداية، اقتصرت التطهيرات التي قام بها المجلس العسكري علي مجموعة من الذين نهبوا البلد واستولوا علي ثرواته فيما كانوا يزعمون تبنيهم سياسة الانفتاح الاقتصادي، من أمثال جمال مبارك، ودائرة أصدقائه ومعارفه من كبار رجال المال والأعمال، هذا علي الرغم من أن بعض من اتهموا بالفساد كانوا موضع تقدير كبير علي المستوي الدولي بصفتهم «مصلحين اقتصاديين». أما تعاملات الجيش وأنشطته الاقتصادية فهي شأن آخر. يقول روبرت سبرينجبورج، الخبير في شئون الجيش المصري في كلية الدراسات

العليا البحرية «إن حماية استثماراته ومجالات أعماله من الفحص والمحاسبة خط أحمر بالنسبة للجيش المصري وهذا يعني عدم إمكانية وجود رقابة مدنية عليها».

حينما سُئل البنتاجون عن أموال المعونة العسكرية إلي مصر التي ينتهي أمرها إلي المشاريع التي يسيطر عليها الجيش أحال البنتاجون السؤال إلي وزارة الخارجية التي أتت إجابتها بالإيميل علي شكل صياغة مخففة من تنبؤ نجروبونتي تقول إن المعونة العسكرية «تساعد مصر علي الحفاظ علي قوة دفاع قوية ومنظمة، وهو أمر ذو أولوية الآن إذ يجب ضمان استمرار دور مصر كقيادة إقليمية تستطيع أن تمارس تأثيرها، كعنصر اعتدال في المنطقة». بيد أن اللواء الجوي المتقاعد مايكل إيه. كولينز، والذي كان كبير الممثلين العسكريين في القاهرة ما بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨، قال إن الأمريكيين لم يستطيعوا التوصل إلي الشعبة العسكرية المصرية التي تدير المصانع والمزارع وكبريات شركات التكنولوجيا الرفيعة، وأضاف «لكنني أعرف بالتأكيد أن كمية كبيرة من الأموال تئول إلي كبار الضباط المسئولين عن تلك المصانع والمزارع والشركات».

في أوائل شهر أبريل عام ٢٠١١ عادت الجماهير إلي ميدان التحرير ومضت تهتف ضد طنطاوي، وفي هذه المرة سحبت قوات الأمن عددا غير معروف من المتظاهرين وألقت بهم في حافلات الشرطة التي أودعتهم السجون والمعتقلات مما أدي إلي اتهام المجلس العسكري بالاستبداد والقول بأن مصر مازالت تسيطر عليها حكومة ديكتاتورية بعد سقوط رأس النظام، أو الديكتاتور حسني مبارك.. قال رجل الأعمال سيد حُزيّن الذي شارك في تلك المليونية «أعتقد أن المجلس العسكري يؤيد النظام القديم، فقد كانوا جميعهم جزءا منه ومن ثم فهم يدافعون عنه بجميع الأساليب الممكنة».

وبعد أن استخدم رجال الأمن والشرطة العسكرية الهراوات، والغازات المسيلة للدموع، تفرق المتظاهرون ثم عادوا مرة أخري وسط الدخان الأسود الذي كان يتصاعد من ثلاث مركبات أُشعِلت فيها النيران ومن بينها حاملتان للجنود، وعبر

لفافات من الأسلاك الشائكة التي كان من المفترض استخدامها حول أماكن تجمع المتظاهرين لم يُعرف من أشعل النيران في المركبات، ثم تعالت هتافات المتظاهرين فرحين بعودتهم للميدان مرة أخري ومقاومتهم القوات الأمنية.

غدا من الصعب تبين شكل مستقبل الحياة السياسية في مصر وسط أعمدة الدخان المتصاعدة من حريق المركبات في تظاهرات ما بعد مبارك، كما أصبح من المستحيل التكهن بما ستنتهي إليه الأمور في بلدان الشرق الأوسط التي تحتذي حذو مصر، ظل صناع السياسة الأمريكيون منذ ثورة ١٩٥٢ يحثون القاهرة علي أن تصبح نموذجا يحتذى به الآخرون بانضمامها إلي بلدان «العالم الحر» مع وعدٍ بتقديم المعونات المالية والعسكرية مكافأة لها. لكن ناصر انتهج سياسة الحياد وعدم الانحياز التي انقلب عليها السادات وتبعه في ذلك حسني مبارك مع مقاومته التدخل الأمريكي في الشئون الداخلية وبخاصة في قضايا الإصلاح السياسي والديموقراطية. وكما بينت وثائق ويكيليكس، فقد سيطرت مشاعر القلق علي واشنطون فيما كانت ترقب مظاهر عدم الاستقرار تلوح في الأفق بمصر. بيد أن بإمكاننا أن نتساءل عما كانت واشنطون تتوقعه وهي التي استخدمت القاهرة مركزا لتلقِّي من يُسلَّمون إليها من الإرهابيين المشتبه فيهم لتتولي تعذيبهم وانتزاع الاعترافات منهم.

وأيا كان ما نعتقده حول تلك التناقضات، فقد غدا الوضع الجديد الذي يواجه الولايات المتحدة – أو تحدي الشرق الأوسط بحسب تعبير چون كيري – مرئياً بوضوح في مختلف الميادين الرئيسية وفي القري والبلدان في أنحاء كثيرة من المنطقة حيث اندلعت التظاهرات والاحتجاجات، وانتشرت من بلد إلي آخر من خلال الشبكات الرقمية. قال بن رودس، نائب مستشار الأمن القومي لشئون الاتصالات الاستراتيجية، إن البيت الأبيض قام، في اليوم الذي تنازل فيه مبارك عن موقعه، بالاتصال هاتفيا بمختلف البلاد العربية لطمأنة حلفائه علي أن الولايات المتحدة عازمة علي «الوفاء بالتزاماتها».

ومثل التظاهرات والاحتجاجات، فقد تنوعت الالتزامات الأمريكية بتنوع البلدان.

كيف يمكن لأمريكا تجسير تلك التناقضات في سياساتها والتي فضحتها بقوة تلك الاحتجاجات؟ أحيانا كانت الإدارة تبدو معقودة اللسان في مواجهة التهديدات التي تتعرض لها ركائز نفوذها في أنحاء المنطقة. قال ستيف كلموني، مدير مركز الأبحاث الليبرالي «نيو أمريكا فاونديشن «إن هالة وضع أمريكا كقوة عظمي قد تهاوت».

كان كلموني قد حضر اجتماعين لمركز الأمن القومي تمت فيهما مناقشة الأوضاع في مصر، وبدا تشاؤمه حول المستقبل الذي لن تحتل فيه الولايات المتحدة مكاناً تحيطه هالة من القدسية مُبرّرا بما حدث بعد العراق، وبعد عشرة أعوام من التخبط في أفغانستان، ومع تهاوي الأنظمة الموالية لها في المنطقة.

أحيانا، ينقد البعض المؤرخين لأنهم لا يأتون بإجابات أو نظريات محددة عن كيفية إمكان «الوصول إلي هناك من هنا»، وربما كان سبب هذا هو أننا نهتم في الأساس بالكيفية التي وصلنا بها «هنا». إن مُنظري مراكز الأبحاث هم حلالو مشاكل، يريدون إنقاذ سياسة القوة العظمي من خلال تحديد أخطاء الماضي وتحاشي الأخطاء في المستقبل. أي أنهم يركزون أبحاثهم علي الماضي الذي يمكن استخدامه والإفادة منه. لكن: ماذا لو أن ذلك الماضي لم يعد صالحا للاستخدام؟ ليس تصويب أخطاء الماضي هو نفسه التعلم من الماضي، إنه عملية تقتضي الإلمام بالأسرار الدقيقة، وتماثل استخدام الطائرات بدون طيار لشن هجمات بالغة الدقة تستهدف القضاء علي أشخاص بعينهم وسط حشود من المتمردين.

دائما ما تم تعيين مصر كهدف لسياسات ما بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لما تقدمه من فرص لزيادة نفوذ الولايات المتحدة وتأثيرها في الشرق الأوسط علاوة علي ما تمثله من تحديات وبخاصة في ظل تفكك النظام الاستعماري القديم. حاول صناع السياسة الأمريكيون بدءا من دين أتشسون إلي هيلاري كلينتون العثور علي المزيج المناسب من الإغراءات، والنصائح والتحذيرات من أجل ضمان وجود بيئة مستقرة مناسبة لتوسع مصالح الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية بالمنطقة. اعتقدوا، في وقت سابق، أن الحرب الباردة كانت فرصة مناسبة لمحاولة التغلب علي مشاعر

الاستياء الناجمة عما حل بالبلاد علي أيدي القوي الاستعمارية الأوربية القديمة، وأيضا التغلب علي الغضب الذي يشعر به العالم العربي نتيجة لقيام دولة إسرائيل. لكن، وعلي الرغم من عدم إمكان حلّ أيٍّ من تلك المشكلتين، إلا أن الولايات المتحدة وبلاد الغرب بعامة اتبعت نمطا في تعاملاتها يقوم علي أساس استخدام المعونة العسكرية لتشجيع الحكومات علي التعاون معها، ومنع تلك المعونة عنها إذا رفضت الحكومات أي شكل من التعاون. وبطبيعة الحال، كان تنافس القوتين العظميين حقيقة واقعة في الشرق الأوسط مثلما كان في جميع أنحاء العالم الثالث. لم تكن خيارات صناع السياسة الأمريكيين في هذا الصدد غير منطقية، وعلي الرغم من أن النمط الذي انتهجوه بدعم هؤلاء الذين يقبلون شروطهم كان سهل التطبيق، لكنه فرض نفسه كمعيار اتبعوه في جميع سياساتهم في المستقبل. لم يحدث وأن أُثير سوي قليل من التساؤلات حول ما إن كان الخطر الذي يحاولون التغلب عليه وتحاشيه والذي يمثل الصعوبات الكامنة بالنسبة لأمريكا هو تقدم الجيوش الروسية في الشرق الأوسط أو تزايد الطموحات القومية في تلك البلاد، وعلي مر السنوات، استمر تدفق الأسلحة إلي المنطقة لإشباع النهم إليها والذي أوجده ما كانت أمريكا تقدمه، وكان يتم تبرير ذلك في واشنطون باستخدام الخطاب ذاته. من ثم، لم يتساءل سوي القليلين عما إن كانت المعونة العسكرية الأمريكية تعيق التنمية السياسية ومسيرة الديموقراطية بالشرق الأوسط وتعمل علي تأخيرها، أو عن كيفية حدوث ما أوصلنا إلي ما نحن عليه «هنا والآن».

أما في حالة مصر تحديدا، فقد أوضحت السياسة التي اتبعتها أمريكا إزاء ناصر لأنور السادات صعوبة العثور علي كوة للهروب من الاعتماد علي النوايا الحسنة للولايات المتحدة كقوة عظمي، فيما أبقي هذا الاعتماد وتلك التبعية علي حسني مبارك في السلطة لعقود ثلاثة حتي أصبح وجوده خانقاً بدرجة لم يعد الشعب يطيق تحملها. بيد أن ما حدث في ميدان التحرير لم يكن ثورة معادية لأمريكا علي الرغم من كل

مخاوفنا[1]، ويمكننا التعلم منها الكثير حول التناقضات التي يضمرها مسعانا لفرض مسار «ديموقراطي» يتيح للشعب تقرير مصيره وما يتميز به ذلك من نفاق.

يري البعض أن الخيار الذي يواجهه صناع السياسة في الولايات المتحدة هو خيار بين «الواقعية» من جهة، ومن جهة أخري السير علي خطي مُثل ويلسون، أي جعل العالم آمنا لنشر الديموقراطية. في ١٤ أبريل ٢٠١١، قام روبرت جيتس برحلة قصيرة من البنتاجون إلي موطن جورج واشنطون في ماونت ڤرنون لحضور احتفال افتتاح مكتبة قومية جديدة مخصصة لدراسات أول رئيس أمريكي. استغل جيتس المناسبة ليلقي محاضرة عن القوي المختلفة التي ظلت تتجاذب صناع السياسة الأمريكيين منذ بداية ظهور الولايات المتحدة علي المسرح العالمي.

قال جيتس إن جورج واشنطون كان يعتقد أن الولايات المتحدة لن تتمكن من البقاء إذا قررت التعامل فقط مع البلدان التي تشاركها في مبادئها ومُثلها:

«بدأنا، في الأشهر القليلة الماضية، نشهد أحداثا غريبة تتكشف في أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. توافقت شعوب المنطقة علي المطالبة بالتغيير، وفي حالات كثيرة، بحكومات ديموقراطية تستجيب لمطالبهم. بيد أنه، فقد ظلت كثير من تلك النظم حلفاء للولايات المتحدة، مازلنا نعمل عن كثب معها كشركاء يلعبون دورا حاسما في مواجهة التحديات الأمنية المشتركة مثل القاعدة وإيران، هذا علي الرغم من أننا نحثها علي تنفيذ الإصلاحات والاستجابة لمطالب شعوبها.

---

(١) علي الرغم من أن شعار معاداة أمريكا لم يكن هو المهيمن أثناء الثورة، إلا أنه يمكن القول إن ملايين المصريين بعامة، والمثقفين بخاصة، كانوا علي قناعة كاملة بأن ما تعاني منه مصر، وما عانته طوال العقود الماضية، كان، ولو بشكل جزئي، نتيجة التدخلات الأمريكية في شئون البلد، وسياساتها الاقتصادية التي فرضتها، ودعمها للفاسدين من حكام ورجال أعمال، ومؤازرتها لإسرائيل وغير ذلك الكثير. يرجع عدم رفع الشعارات المعادية إلي أن الثورة بدأت تلقائية دونما قيادة أو استراتيجية. ثم حدث بعد ذلك أن حاولت الولايات المتحدة والغرب احتواء الثورة واجتذاب بعض عناصرها، واستخدام المغريات والأموال لحرفها عن مسارها الطبيعي الذي كان لابد أن يؤدي بها إلي بلورة رؤية استراتيجية واضحة وتبني سياسة وطنية وقومية تهدف إلي التخلص من التبعية، وبخاصة للولايات المتحدة. (الترجمة)

«إن إحدي التيمات التحتية الأساسية للتاريخ الأمريكي منذ جورج واشنطون هي أننا نجد أنفسنا مجبرين علي الدفاع عن أمننا ومصالحنا بأساليب تؤدي علي المدي البعيد فقط إلي انتشار القيم والمؤسسات الديموقراطية.. إننا حينما نناقش علناً رغبتنا في ترسيخ القيم الديموقراطية في أنحاء الكوكب، فإننا نتحدث عن عالم مازال علي بعد سنوات أو عقود طويلة من الآن».

في هذا الخطاب، يود جيتس من مواطنيه أن يستوعبوا حدود قوة الولايات المتحدة، والخطر الكبير علي مصالحنا القومية الذي يمثله هؤلاء الذين يريدون إعادة صياغة العالم وتشكيله بين عشية وضحاها. بيد أنه من الصعوبة بمكان معرفة ما يعتقد جيتس أن بإمكان الولايات المتحدة فعله كي تبحر بأمان وسط الثورات التي تعم أنحاء الشرق الأوسط الآن. إن ما يقوله عن واقعية واشنطون، وكيف أنها تتدخل في حالات معينة، وتمتنع عن التدخل في حالات أخري قد تشكل استراتيجية مفيدة في البداية، لكن هذا النهج لن يجدي إذا أردنا تخطي مأزقنا الحالي بمراحل كافية. مثلا، لم يكن من المحتمل أن يدعم روبرت جيتس، قبل أحداث التحرير، إعادة النظر في المعونة العسكرية التي كانت أمريكا تقدمها لحسني مبارك، إذ إنها الوسيلة التي من خلالها كانت الولايات المتحدة تأمل في توجيه التطلعات القومية المصرية منذ ثورة ١٩٥٢ كي تصبح جزءا من النسخة الأمريكية للنظام العالمي في عصر ما بعد الكلونيالية (الاستعمار الأوربي) والذي تهيمن عليه أمريكا. إن محاولة اختيار أي الثورات نؤيدها وأيها نتباعد عنها بل ونتآمر عليها، فيما نُصرّ، وكما تفعل هيلاري كلينتون وروبرت جيتس، علي أنه بالإمكان التوفيق بين القوة وبين المبادئ في نهاية المطاف، يؤجل توافقنا مع تضمينات الطريق إلي ميدان التحرير وتفهمنا لها.

لاحقة

«بعد انسحاب أمريكا من العراق، وقرارها بالانسحاب من أفغانستان وبعد أن قيّمت الثورة في مصر مدانا الاستراتيجي، فلا مفرّ من تعريف جديد لقيادة أمريكا [للعالم] ولمصالح أمريكا القومية».

– هنري إيه. كيسنجر

الواشنطون بوست، ٧ يونيو ٢٠١١

في ظهور مقتضب له علي شاشات التليفزيون قرب منتصف الليل في ١ مايو ٢٠١١، قال الرئيس أوباما «لقد تحققت العدالة». تم قتل مُدبّر «أسوأ هجوم علي الشعب الأمريكي في تاريخنا بعد معركة بالأسلحة النارية». أكد الرئيس للأمة أنه لم تحدث إصابات بين الأمريكيين، وأن فرقة السيلز SEALs البحرية، وهي الفرقة الخاصة التي نفذت العملية، حرصت علي تفادي الإصابات بين المدنيين، وأنهم أخذوا جثته وألقوا بها في البحر. وعلي الفور، أثيرت التساؤلات حول ملابسات اكتشاف مكان بن لادن ومقتله في مخبئه بباكستان، لكن أهم ما نجم عن تلك الغارة الليلية هو أنها دفعت بالثورة المصرية، بل وبأحداث الربيع العربي برمته، إلي الخلفية.

غدا الجمهور الأمريكي، مؤقتا علي الأقل، أسير أنباء بن لادن، وكيفية اقتفاء أثره إلي مخبئه، وإطلاق فريق تلك القوة الخاصة النيران عليه حتي الموت. بيد أن رد الفعل في مصر علي تلك الأحداث كان مختلفا.

قالت إحدي السيدات لمُحدثها وكان شخصاً يدرس العالم الإسلامي «أود لو أن الولايات المتحدة احترمت البشر في جميع أنحاء العالم وحافظت علي حقوق الإنسان بنفس درجة اهتمامها بابن لادن». أظهر استطلاع للرأي أجراه مركز جالوب بين المصريين وجود غالبية ساحقة من الآراء السلبية حول الولايات المتحدة. علاوة علي ذلك، فإن نسبة تقدر بأكثر قليلا من نصف المستَطْلعين تعارض المعونة العسكرية الأمريكية، فيما عارض ثلاثة أرباع المستطلعين تلقّي أية مجموعة سياسية لأية معونة كانت.

كانت ردود الأفعال هذه لافتة بخاصة لأن الاقتصاد المصري كان في حالة خطرة بعد الثورة، حيث انخفضت قيمة الجنيه المصري مقارنة بالعملات الدولية، وارتفع معدل البطالة إلي ١٢٪ وتسببت التوجهات «الاشتراكية» للحكومة العسكرية الانتقالية في إثارة مخاوف المستثمرين، حينما رفعت أجور موظفي الحكومة والقطاع العام

واتخذت خطوات أخري للتخفيف من وقع الأزمة التي تمر بها البلاد. لكن المجموعات الجديدة من المتظاهرين والمحتجين الذين عادوا إلي ميدان التحرير رأوا أن هذه الإجراءات أبعد من أن تلبي مطالب الثوار، وتُنهي سنوات من المحسوبية واستئثار القلة بثروات البلد فيما كانت الغالبية تعاني من الفقر والحرمان. اعترف اللواء محمود نصر، عضو المجلس الأعلي للقوات المسلحة، علناً بأن معدل الفقر يصل إلي حوالي ٧٠٪ من مجموع السكان، وأبدي مخاوفه من اندلاع «ثورة الجياع».

إذن، لِم أيدت نسبة كبيرة من المُستَطلعين الرفض للمعونة الأمريكية وتشككهم فيها؟ يزعم كبير محللي استطلاعات الرأي بجالوب أن السبب ببساطة هو أن المصريين، ظلوا يعتقدون منذ زمن طويل، أن المعونة الأمريكية هي السبب في عدم إمكان اتخاذ مصر قرارات سياسية مستقلة، وهي أيضا السبب في أن «الأسلوب الذي يُحكَم به البلد لا يعكس تطلعات المصريين الحقيقية».

وأضاف قناعته بأن آراء المصريين عن الولايات المتحدة ستشهد تحسنا كبيرا لو أنها ضغطت علي إسرائيل لتوقف توسعها الاستيطاني في الأراضي الفلسطينية. لكنه رأي أيضا أن السبب الرئيسي في تشكك المصريين هو أن المعونة الأمريكية مازالت تُستغل فقط للعمل علي استمرار الأحوال التي كانت سائدة أثناء سنوات مبارك.

كان النظام المصري الجديد مهددا بالفشل حتي قبل الانتخابات التشريعية التي قُرِّر إجراؤها في سبتمبر حيث بدا من المرجح أن جماعة الإخوان المسلمين التي تَزيّت بعباءة حزب الحرية والعدالة وتحالفت مع حزب الوفد الليبرالي، من المرجح لها الحصول علي الغالبية البرلمانية بحيث تتحكم في مجلس الشعب وأيضا في عملية وضع الدستور. وصلت الرسالة إلي واشنطون، ومن ثم أعلن الرئيس أوباما في ١٩ مايو ٢٠١١ عن حزمة معونات لمصر تضمنت إعفاءها من مليار دولار من ديونها، وضمان السندات الأوربية المصرية، بمليار دولار أخري وذلك لخفض نفقات خدمة القروض. علّق أحد الخبراء الماليين علي ذلك بقوله إن الدعم الأمريكي هو تغيير

لقواعد اللعبة بالكامل، إذ إن جورج إيتش. بوش كان قد أعفي مصر من ديونها في التسعينيات ليشجع القاهرة علي المشاركة السياسية، بل والعسكرية (ولو بقوة رمزية) في حرب الخليج الأولي، علي حين يؤشر دعم أوباما بوضوح علي مخاوف واشنطون من حدوث أزمة تؤثر في منطقة الشرق الأوسط بأكملها.

وصلت الرسالة أيضا إلي صندوق النقد الدولي، والذي كان قبل أيام من اندلاع ثورة ٢٥ يناير قد نشر تقريرا يُثني فيه علي سياسة مبارك الاقتصادية وعلي حسن تدبيره، ثم أدرك الصندوق أنه لم يكن يواكب الرأي العام المصري، واعترف بذلك ضمنا بأن أعلن عرضه إقراض مصر ما بعد الثورة ٣ مليارات دولار من دون فرض شروطه المعهودة التي تقضي باتخاذ إجراءات تقشفية والتي كان قد طلبها من السادات قبل ذلك بسنوات واشترط عليه إلغاء كل إجراءات ناصر الاشتراكية قبل أن يمنحه أية قروض. ثم سرعان ما أضاف البنك الدولي، شقيق صندوق النقد الدولي، عرضه بقرض مقداره ٢,٢ مليار دولار للمساعدة. قال أحد ممثلي صندوق النقد الدولي «لقد أتت الثورة بكثير من التطلعات والآمال، وفيما نري أن إحدي أكبر أولويات الحكومة في مصر هي العدالة الاجتماعية.. ونحن أيضا نحترم تلك الأولوية».

أيضا وصلت الرسالة إلي المملكة العربية السعودية التي خشيت من انتشار القلقلة وعدم الاستقرار إلي باقي أنحاء الشرق الأوسط إذا حدث وانهارت مصر. عرضت الرياض علي القاهرة ٤ مليارات دولار معونة اقتصادية من أجل دعم موازنتها في نفس الوقت الذي كانت السعودية قد زادت مرتبات مواطنيها وقدمت لهم دعما للإسكان[1]. لكن، فحتي لو أن مصر تلقت كل تلك الحوافز فقد أثيرت الشكوك الجادة

(١) رفضت مصر عرض البنك الدولي في البداية وذلك حتي لا تزيد من حجم ديونها التي راكمتها (طوال سنوات حكم مبارك، ثم عادت الحكومة المصرية ودخلت في تفاوضات مع البنك للحصول علي القرض، بيد أن البنك أصر علي فرض شروطه هذه المرة ومازالت المحادثات جارية. أما المعونة السعودية فقد قيل إنها وضعت شرطا لها وهو تسليم مبارك إليها وعدم إلحاق أي أذي به. علي أية حال، فعقب عام من ذاك التاريخ؛ أعلن الجنزوري رئيس الوزراء المصري أن مصر لم تصلها معونة من أي أحد رغم كثرة الحديث والتصريحات [الترجمة]

في أنها لن تكون كافية. في ٢٤ مايو، وقبيل خطاب أوباما، أصدرت مؤسسة موودي للخدمات المالية Moody Financial Services بيانا جاء به إن «مصر تعاني من تحديات ومشاكل سياسية واجتماعية/ اقتصادية عميقة الجذور تتضمن معدل بطالة عالياً ومزمنا وتضخما مفرطا، وفقرا منتشراً».

بيد أنه لم يُعرف بعد ما إن كان صناع السياسة الأمريكيون سيمضون في اتباع الأساليب القديمة للتعاطي مع التوجهات والتطلعات القومية للمصريين والتي ظلت تهيمن علي أفكارهم منذ أيام ناصر والتي تماشي معها السادات ومبارك اللذان كانا أكثر مرونة من سلفهما. هل سيمضون في اتباعها الآن فيما تجتهد مصر للعثور علي توازنات جديدة داخليا وخارجيا تتبعها في علاقاتها مع العالم الخارجي. كان ما قالته هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية في مؤتمر صحفي لها بالبرازيل يشير إلي أن واشنطون مازالت تشعر أن عليها الاضطلاع بمسئولية الإشراف علي مجريات الأمور هناك. أعلنت كلينتون أن وزارة الخارجية تشعر بالقلق إزاء نية الحكومة الانتقالية لمحاكمة حسني مبارك وقالت «نحن نراقب عن كثب مجريات الأحداث بمصر» وحذّرت من أن محاكمته بتهمة قتل المتظاهرين ستتسم بالعاطفية المفرطة ورأت أنها يجب أن تسير وفق أعلي المعايير القانونية، ثم أضافت أن المجلس العسكري يتخذ إجراءات صارمة ضد الصحفيين والمدونين «الأمر الذي لا يتسق مع مطالب الشعب المصري وتوجهاته التي عبروا عنها حينما بدأوا [ثورتهم] بميدان التحرير».

أيضا، كان ما جاء بالحوار الشامل الذي أُجري مع الأميرال مايك مولِن، رئيس الأركان المشتركة الذي كان علي وشك التقاعد، مع بلو ومبرج نيوز في نيويورك كان أكثر دلالة علي مخاوف واشنطون من أنها قد تفقد ما لها من نفوذ في مصر. قال مولِن إن ثمة احتمالاً لتقليص المعونة العسكرية الأمريكية لأمريكا اللاتينية والبلدان الإفريقية وذلك لأن البنتاجون يواجه تخفيضا في ميزانيته يبلغ ٤٠٠ مليار دولار علي مدي الاثني عشر عاما التالية. أضاف مولن القول إن تلك المعونات استثمارات وقائية حيث تعمل علي تلافي الصراعات وتساعد الولايات المتحدة علي الاستجابة للأزمات بأسلوب أفضل، وإنه علي الرغم من أن قيادة أمريكا للعالم ضرورية وستستمر

كذلك، إلا أنه ينبغي علي البلاد الأخري أن تقدم المساعدة في الأوضاع المستقبلية: «إننا جميعا مترابطون، متداخلون، ومعتمدون علي بعضنا، وسيظل الوضع كذلك إذ إنه لا يوجد بلد يستطيع القيام بهذا بمفرده. ثم مضي مولن يتحدث عن المعونة العسكرية لمصر طوال الأعوام الثلاثين السابقة وعن الفوائد التي جنتها الولايات المتحدة نظير ذلك. قال مولن أيضا إنه ظل علي اتصال بنظرائه المصريين أثناء أيام الاضطرابات فيما كان الجيش المصري هو الذي يتخذ القرارات حول كيفية التعاطي مع المتظاهرين. ثم ختم بالقول إنه كان قد عاد لتوه من زيارة للقاهرة حصل أثناءها علي مزيد من التطمينات، وإنه يري أن تمويل الولايات المتحدة للجيش المصري هو استثمار لا يكلفها الكثير نسبيا.

واجهت إدارة أوباما تحديات بالشرق الأوسط أخذت في التصاعد حتي وصلت إلي الحد الفاصل، وإلي نقطة للتحول. فحتي فيما كانت تحاول أن تخلّص نفسها من حربها علي العراق ومغباتها مع الإبقاء علي نفوذها هناك، وتحاول أيضا تقليص جهودها مفرطة الطموح لإعادة تشكيل مستقبل أفغانستان، ظلت الأوضاع في مصر تنذر بأخطار عظمي وطويلة الأمد. لم يتقرر بعد ما إن كان بالإمكان التغلب علي تلك الأخطار من خلال تقديم معونات مالية جديدة غير مشروطة بحيث لا تعمل علي اغتراب مشاعر المصريين، ومن دون معاودة الارتكان علي «الاستثمار الرخيص نسبياً» من خلال تقديم تلك المعونة للجيش لحل مشاكل مصر السياسية[1]».

وفي واقع الأمر، فإن اعتراف هنري كيسنجر اللافت بأن الثورة المصرية تقتضي إعادة تعريف لقيادة أمريكا للعالم، ولمصالحها القومية، هو أمر لا مفر منه.

---

(١) قامت الولايات المتحدة بالفعل، وباعتراف مسئوليها مثل هيلاري كلينتون وغيرها، بتمويل بعض الجهات والأفراد، إما مباشرة أو من خلال جمعيات ومكاتب مشبوهة، وذلك في محاولة منها لاحتواء الثورة وحرفها عن مسارها المحتم، كي تدرأ «الأخطار» عن مستقبل نفوذها في المنطقة، وعن مصالحها ومصالح إسرائيل وغيرها من الحلفاء، وأيضا من أجل زرع الانقسامات والفرقة [الترجمة]

صدر من هذه

السلسلة

١- محمد (صلي الله عليه وسلم)
٢- صدام الحضارات
٣- عصر الجينات
٤- القدس
٥- العولمة والعولمة المضادة
٦- التاريخ السري للموساد
٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨- حرم محمد علي
٩- عولمة الفقر
١٠- صور حية من إيران
١١- البحث عن العدل
١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣- الصهيونية تلتهم العرب
١٤- معارك في سبيل الإله
١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦- التسوية: أي أرض.. أي سلام
١٧- المكنز الكبير
١٨- الحق يخاطب القوة
١٩- نساء في مواجهة نساء
٢٠- مؤامرة الغرب الكبري
٢١- روسيا.. إلي أين
٢٢- موسوعة الأم والطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوجيا
٢٦- ٣٦٥ حنوتة وحتوتة
٢٧- بوش ضد العراق... لماذا؟!
٢٨- أين الخطأ؟
٢٩- اللولب المزدوج
٣٠- رجال بيض أغبياء
٣١- سادة العالم الجدد
٣٢- الخطيئة الأولي لإسرائيل
٣٣- اللعب مع الصغار
٣٤- الإبادة السياسية
٣٥- حكومة العالم السرية
٣٦- ما بعد الإمبراطورية
٣٧- بوش في بابل
٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولي
٣٩- تزييف الوعي
٤٠- القانون في خدمة من؟
٤١- كفي
٤٢- معني هذا كله
٤٣- حياة بلا روابط
٤٤- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٥- جسدي سلاحاً
٤٦- ثالوث الشر
٤٧- الحضارة الإسلامية المسيحية
٤٨- أمريكا العظمي .. أحزان الإمبراطورية
٤٩- الطريق إلي السوبر مان
٥٠- مدربون علي القتل
٥١- معاداة السامية الجديدة

٥٢- إبادة العالم الثالث
٥٣- بيولوجيا الخوف
٥٤- لغز اسمه الألم
٥٥- تعليم بلا دموع
٥٦- أحمد مستجير
٥٧- العين بالعين
٥٨- شافيز
٥٩- قصص الأشباح
٦٠- حزب الله
٦١- الإنسان هو الحل
٦٢- السيارات المفخخة
٦٣- بلاكووتر
٦٤- حضارتهم وخلاصنا
٦٥- نحو الحرية .. نلسون منديلا
٦٦- العهد
٦٧- مزرعة الحيوانات
٦٨- أطفال الإنترنت
٦٩- لعبة الملايين
٧٠- تجارة الجنس
٧١- الأمريكي الساذج
٧٢- الأبرياء
٧٣- الشباب والجنس
٧٤- التربية من عام إلي عشرين عام
٧٥- فلورانس وإداورد
٧٦- الجهاد في سبيل الحقيقة
٧٧- غاندي(٢)، رؤي، تأملات، اعترافات
٧٨- شرف البنت
٧٩- الزواج المحرم
٨٠- أنبياء مزيفون
٨١- إمبراطورية العار
٨٢- اختطاف أمريكا
٨٣- شريعة الجستابو
٨٤- رومانسية العلم
٨٥- اختفاء فلسطين
٨٦- من هم إسرائيل
٨٧- اقتصاد الاحتيال البريء
٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب
٨٩- الله.. لماذا؟
٩٠- الأمراض المعدية
٩١- الطريق إلي بئر سبع
٩٢- مجمع الشيطان
٩٣- في ذكري المقاومة
٩٤- خطايا تحرير المرأة
٩٥- دساتير من ورق؟
٩٦- صُناع الملوك
٩٧- صناعة الأكاذيب
٩٨- عندما تحكم الصين العالم
٩٩- الحركة العامة للاقتصاد المصري في نصف قرن
١٠٠- رحلة السندباد
١٠١- وجه أوباما الأبيض
١٠٢- تشي جيفارا سيرة للنشء
١٠٣- أنا افتراض.. أنا موجود
١٠٤- قصة فيس بوك

١٠٥- غواية الرجال

١٠٦- تأثير إيران ونفوذها في المنطقة

١٠٧- المعرفة في خدمة الهيمنة

١٠٨- البيتلز «سيرة للنشء ٣»

١٠٩- أسامة بن لادن «سيرة للنشء ٤»

١١٠- «كاليجولا» مسرحية من ٤ فصول

١١١- المسلمون الافتراضيون

١١٢- القاعدة نهاية تنظيم، أم انطلاق تنظيمات؟

١١٣- مافيا إخفاء الأموال المنهوبة

١١٤- الدولة الدينية فى اليهودية والمسيحية والإسلامية

١١٥- مُرشد الوالدين

١١٦- أجيال فى خطر

١١٧- العرب.. رواد الفكر الاقتصادى الحديث

١١٨- تركيا الأمة الغاضبة

١١٩- انقراض العالم الثالث

١٢٠ - الثورة العربية والثورة المضادة أمريكية الصنع

١٢١- الأقصى ينهار

١٢٢- مرشد المحتجين والثوار

١٢٣- الإسلاموفوبيا